مجلة المرابط

العدد : ٢١١ الموافق في ربيع أول ١٤٢٠ هجري ٧ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : كيف تعامل المجتمع الغربي مع الهجرة ! -٢-	بقلم : أ. محمد العروسي

٢ - من الإسلام المنزرع إلى الإسلام العضوي المستقر:

ظن بعض دارسي علم الاجتماع بأن طمس الهوية أمر سهل تكفي مؤونته عدة منظمات شبابية وبعض البرامج التربوية الموجهة ، ولكن بعد مرحلة المد والجزر التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة ، وبعد ما تعامل المجتمع الغربي مع الإسلام على أنه « **إسلام منزرع** » كما سماه الكاتب البلجيكي « فليس داسيتو » ، وجسم غريب يجب استئصاله أو حقنه بأدوية مخدرة لتعطيل مفعوله ، أصبح يسلم بأن وجود الإسلام في أوروبا حقيقة عضوية باقية لا سبيل لاستئصالها ، وهي ماضية في طريق الصياغة النهائية والبناء المؤسساتي الاجتماعي المستقر.

لذلك حل محل السؤال الأول : كيف يجب استئصال الإسلام لتحقيق الاندماج ؟ ، سؤال ثان : كيف يجب أن يكيف المسلم تفكيره وعقيدته ليوفق بين دينه ومتطلبات المجتمع ألأوروبي ؟.

يعتبر أصحاب هذا الطرح بأن المجتمع ألأوروبي ناضل نضالاً مريراً وقدم تضحيات جسيمة من أجل الحفاظ على العلمانية وفصل الدين عن الدولة ، ويرى في النمط الإسلامي تهديداً لهذا المكتسب التاريخي والحضاري الذي أخرج أوروبا من الظلام إلى النور ومن التأخر إلى الازدهار والنهضة. وبدلاً من التركيز على مفهوم الاندماج وسبله أصبح يبحث في صفة المواطنة التي يجب أن تمنح للمسلم ، وما تكفله من حقوق وواجبات في ظل دولة القانون والمؤسسات ، وألح على ذلك قيام الوحدة السياسية ألأوروبية التي أوجدت بدورها تلاقحا بين قوميات وفئات مختلفة ، فكانت المناسبة سانحة لبحث الموضوع برمته وإيجاد سبب أو ذريعة سياسية واجتماعية للقيام بذلك.

ولم يعد شكل ولون ولغة والسلوك الاجتماعي للمهاجر المسلم مشكلة كبيرة ، فالمجتمع قبل بذلك بعد أن رفضه أملاً في تحقيق فائدة وهي : تشبيب المجتمع والاستفادة من هذه الطاقة البشرية الفتية ، بل صار دين وموقف المسلم المهاجر وابنه من العلمانية هو المشكلة ، فلقد كان من المأمول ألا يبقى في الغرب من يتمسك بالهوية العقدية ولكن يكتفي ببعض مظاهرها .

هذا هو التحول الذي حصل في موقف الأحزاب العلمانية ، أما الأحزاب ذات الخلفية الدينية فقد غازلت الوجود الإسلامي حفاظاً على بقاء الروح الدينية في المجتمع ، لتحمي نفسها بالدرجة الأولى ، وحاولت أن تكسب صداقة بعض المؤسسات الإسلامية وبعض الشخصيات الإسلامية المؤثرة . لهذا

الغرض ، وهي خطوة اعتبرها المسلمون إيجابية وتجاوبوا معها لطبيعة التسامح التي يتحلون بها ، وقدرتهم على الانفتاح على الغير.

إلا أن موقف الأحزاب العلمانية كان بارزاً على السطح ، فلقد كان لأوروبا صدام عنيف مع الكنيسة خرجت منه بحتمية فصل المجتمع المدني عن المجتمع الديني ، وحصرت بذلك مفهوم التدين في الأحوال الشخصية ، بل في الحياة الشخصية الوجدانية الضيقة للفرد ، لذلك يجب أن تتعامل مع الإسلام والمسلم بنفس الطريقة و الوتيرة.

واعتبر هؤلاء فشل الكنيسة في التلاقح مع الدولة والعلم فشلاً محتوماً للإسلام في نفس المهمة ، فأسقطت هذه النظرة على الإسلام دون مراجعته ودون التعرف عليه ، واعتبرت مظاهر التدين عند المسلمين خطرا يجب ألا ينقل للأجيال الناشئة منهم حتى يصبحوا مواطنين صالحين حريصين على العلمانية ومكتسباتها. ولكن هذه المظاهر بقيت بارزة عند المسلمين وحتى عند قسم كبير من أبنائهم فتحول الأمر لصياغة كراس شروط اكتساب المواطنة على الأساس التالي : الدين قضية شخصية يجب ألا تتعدى على أقصى حد حياة الفرد في بيته ، والغرض من ذلك واضح وهو إقصاء الإسلام من أي بروز اجتماعي ، ومنع الإسلام من فرض مظاهره في المجتمع حتى لا يكون لذلك تأثير ، وخاصة وأن عدداً من المسلمين الأوروبيين الغربيين قد اعتنقوا الإسلام ، وكان لبعضهم مساهمات فعّالة في الحفاظ على الهوية الإسلامية في الغرب ، وتظهر مظاهر التغييب هذه في الأمثلة التالية :

المثال الأول : موقف المجتمع الأوروبي من الحجاب الإسلامي :

اندلعت حرب الحجاب في سنة ١٩٨٩ بفرنسا عندما منعت فتيات مسلمات من الدخول إلى المدرسة وهن مرتديات للحجاب ، بحجة أن الحجاب هو رمز التدين وعلى المدرسة أن تحافظ على حيادها ، وبعد أيام قلائل صدرت هذه المعضلة إلى بلجيكا ، وما هي إلا أسابيع حتى أصبح الأمر شغل الصحافة ثم أروقة وزارات التربية والتعليم وحتى فلاسفة المجتمع في كلا البلدين وأوروبا عامة.

كيف لا يكون ذلك والحجاب يهدد حضارة وقيم الغرب ؟ كيف لا والحجاب هو رمز التأخر والرجعية ورمز قهر المرأة واستعبادها ، وقد حررها الغرب من ظلم الكنيسة وساواها بالرجل وأعطاها حق الانتخاب؟ كيف لا والحجاب هو رمز التزمت والتعصب ؟

فالذين وقفوا موقف العداء كانوا يقولون للبنت المسلمة : لا للحجاب فنحن لا نسمح لك بأن ترتديه في المدرسة وأماكن العمل... لا نسمح لك بإعلان معتقدك فأنت في بلد علماني عليك أن تحترمي

مبادئه ، ولن تكوني مواطنة أوروبية إلا إذا قبلت بذلك ، وبتتبع بعض التصريحات نجد بأن الرفض كان من باب العنصرية الدينية فقط ، وهو ما يتجلى بوضوح في الوقائع الآتية : عللت بعض المدرسات رفضها للحجاب بالحفاظ على سلامة الفتيات في أوقات دروس الرياضة والتجارب العلمية في المخابر ، وقال مدرس فرنسي عندما حكمت المحكمة لصالح الفتيات : القضية لم تنته فحكم القاضي هو تفسير للقانون وليس القانون نفسه ، وبالتالي لا نسمح للفتيات بالعودة . فهذا كله يجعلنا نعتقد أن مقولة المحافظة على مكتسبات العلمانية هو مجرد حجة واهية يقصد بها رفض مظاهر التدين عند المسلمين حقدا وعنصرية أولاً ، ثم العمل على طمس الهوية الإسلامية ثانياً . ويؤكد ذلك كله تناقض وتباين بعض الأحكام التي صدرت في هذه القضية في فرنسا وبلجيكا ، والتي تراوحت بين قبول الحجاب وبين السماح له جزئيا ورفضه تماما. وهكذا أُحرجت العلمانية في مواقفها حتى عند تقيدها بنص القانون الذي أرست قواعده ، وبالمقابل عانت الفتاة المسلمة من هذا ولا تزال تعاني ، وهو ما عبرت عنه بكل أسى تلك البنت المسلمة التي أغلق في وجهها باب المعهد – في فرنسا - بعد ما دخل جميع الطلاب فطأطأت رأسها واستسلمت للبكاء. إن قضية الحجاب كانت ولا تزال تعبر عن طبيعة وفلسفة الخلاف القائم بين دعاة العلمانية والديمقراطية في الغرب وبين أبناء المسلمين الراغبين في الإقامة في الغرب ؛ كمواطنين يلتزمون بما يمليه ذلك عليهم ، وفي نفس الوقت يحترمون ويتشبثون بمعتقدهم . لقد هاجم هنا الغرب قيم الإسلام وأعلن رفضه لها ، وطالب المسلمين بالتنازل عن نسبة كبيرة من القيم الإسلامية ، معتبرا الحجاب ذكرى لحرب قديمة متجددة بين العلمانية والدين...

المثال الثاني : من نفس المنطلق وبنفس المقاييس كتب عن هوية امرأة مسلمة في فرنسا : - كثيرة التطبيق للإسلام - !!

المثال الثالث : مقاييس قبول ورفض التجنس: جاء في بعض منشورات مركز تكافؤ الفرص ومكافحة العنصرية ببلجيكا أن أهم مقاييس قبول ورفض منح الجنسية هو مدى الاندماج في المجتمع ، واعترف المنشور نفسه بأن هذه المقاييس غير محددة بشكل واضح دقيق ، وهي محل اجتهاد شخصي عند من يقررون في منح أو رفض الجنسية ، وذكر المنشور ثلاث حالات على سبيل المثال لا الحصر : لم تمنح بنت مسلمة الجنسية نظراً لنتائجها الدراسية الضعيفة ، ولم تمنح ثانية لأنها ترتدي الحجاب الإسلامي . وبعد سرد هذه الأمثلة أقول : على الرغم من أنه لم يطالب أحد من المسلمين أوروبا بإقامة دولة إسلامية ، ولم ينادِ أحد بالتخطيط لذلك ، وأبدت الجالية المسلمة بمجموعها ، شبابا وكهولا

وشيوخا ، رغبة في الاندماج وفي التعاون والمساهمة في بناء مستقبل أفضل للجميع فإنه لا تزال هناك عقبات في الطريق مبنية على جهل الآخر أو عدم الرغبة في فهمه ، والمخرج من كل هذا لا يكون إلا بالتخلي على ممارسة العنصرية الدينية.

أما صفة المواطنة التي يجب أن تمنح للمهاجر المسلم أو لأبنائه ، فيجب أن تكون كاملة في الحقوق والميزات ، ودون سلم يتفاوت فيه المواطنون حسب معتقداتهم والتاريخ الإسلامي يعطي أبلغ الدروس في رعاية المساواة بين مواطني الدولة الإسلامية مهما كان معتقدهم . وعلى المسلمين كذلك أن يتفهموا أوضاعهم ويستوعبوا الإطار الذي يوجدون فيه من كل جوانبه الاجتماعية والسياسية والشرعية ، ويقوموا بتربية أبنائهم ليصبحوا مواطنين على هذا الأساس .

وأخيراً لابد أن أنوه بموقف فصيل كبير من الجالية المسلمة وهو موقف فاعل آخذ في النمو يرفض عمليات طمس الهوية ، ويطالب بالمساواة مع الآخرين على أساس من الاحترام المتبادل ، ويسعى إلى مد الجسور وكسر الحواجز ، كما يبدي استعداده الكامل للقيام بواجب المواطنة ولا يجد في معتقده ما يعارض ذلك ، وهو بذلك يسعى لترسيخ وجود الإسلام كهوية عقدية لجالية من أصل غير أوروبي ، تأمل أن تكون لبنة فاعلة في المجتمع وليس معول هدم أو تخريب المجتمع في أي مستوى من مستوياته أو مجال من مجالاته ، وهي خطوة إيجابية واعية تستحق التأييد والمناصرة من المسلمين ومن بقية المجتمع الغربي ، إذ عليه أن يعطيها الفرصة ويستمع إليها قبل الحكم عليها ، خاصة وأن هناك من يضايقها ويرميها بالتعصب والتزمت قصد محاصرتها والتشكيك في صدقها ، فمن الأمور التي تؤخذ عليها رغبتها في الإبقاء على الصلة بالإسلام والمسلمين في العالم ، في حين أن ذلك طبيعي جداً ، لأن الإسلام في الغرب كغيره من المعتقدات والنظريات سيبقى مرتبطاً بالمسلمين في العالم ، كما هو شأن كل الأديان ، وحتى العلمانية نفسها التي لها منظماتها العالمية والتي تنسق فيما بينها ، ولا يمكن لهذا الإرتباط أن يكون حجة حقيقية ومقبولة لضرب وجود الإسلام في أوروبا .

تلك هي نظرات سريعة لا تسمح صفحات الرائد بالتفصيل فيها لكني آمل أن أساهم من خلالها في إعادة تشكيل منظومة الوجود الإسلامي في الغرب ، وأن يراجع الجميع موقفه ويصحح مسلماته في سبيل بناء جديد لبنته خير الإنسانية وإسمنته التسامح والاحترام .